موت الشعر الأسود

قصة بقلم زكريا تامر

كانت شمس الظهيرة تسطع بيضاء على حارة السعدي بينما شيخ المسجد يقول للمصلين ان الله هو الذي خلق الرجال والنساء والاطفال والطيور والقطط والاسماك والغيوم ، وهو الذي خلق ايضا عباده الفقراء من تراب ، فيهز الرجال رؤوسهم موافقين ، فوجوههم تشبه ترابا لم تهطل فوقه قطرة مطر ، وبيوتهم من تراب ، ويوم يموتون يدفنون في التراب .

ولما انتهت صلاة الظهر ، غادر الرجال المسجد يرين عليهم خشوع هادىء وكآبة عذبة ، واتجه معظمهم الى مقهى حارة السعدي ، وهنا تكلموا عما حدث قبل ايام ، فلقد قصد منذر السالم مخفر الشرطة ، واعلن مرفوع الرأس انه ذبح اخته لان العار في حارة السعدي لا يمحوه سوى الدم .

وهكذا فقد ماتت فطمه الفاكهة التي تحلم بها كل الاشجار ، فقطمة امرأة جميلة ، ولكن اجمل ما فيها شعرها الاسود ، الماء المظلم الذي لا تتألق فيه نجمة ، والخيمة التي تمنح الامان للمطارد الخائف .

وعندما كانت فطمة صغيرة السن ، كان جدها يهوى تمشيط شعرها ، وينثر خصلاته الفاحمة بزهو ونشوة ، ويغمغم باعجاب : « كنز .. كنز » .

ويوم دخلت فطمة بخطا مرتبكة الى غرفة الضيوف وهي تحمل فناجين القهوة ، لفت شعرها انظار النسوة الخاطبات ، ونالت اعجابهن توا ، فتعالت الزغاريد بعد اسابيع ، وصارت فطمة زوجة لمصطفى الرجل الذي يملك وجها لا يبتسم .

ولقد احب مصطفى فطمة وشعرها ، ولكنه كان يرى في منامه حلما واحدا يركض فيه تحت مطر غزير دون ان تبلله قطرة ماء .

وكان مصطفى يقول لفطمة : « انا رجل وانت امرأة . والمرأة يجب ان تطيع الرجل . المرأة خلقت لتكون خادمة للرجل » .

فتقول له فطمة : « اني اطيعك وافعل كل ما تريد » .

فيصفعها قائلا بنزق : « عندما اتكلم يجب ان تخرسي » .

فتبكي فطمة ، ولكنها كانت كعصفور صغير مرح طائش ، فتكف عن البكاء بعد هنيهات ، ثم تضحك وهي تمسح دموعها ، فيغمض عينيه ، ويتخيل فطمة تقول له بذل : « احبك واموت لو هجرتني » .

ولكن فطمة لم تقل له يوما ما يتوق اليه .

وفي يوم من الايام دخل مصطفى متجهم الوجه الى مقهى حارة السعدي ، وقال لاخيها منذر السالم : « قبل ان تقعد كعنتر بين الرجال ، اذهب وخذ اختك من بيتي » .

فأحنى منذر السالم رأسه خجلا من الرجال المحيطين به ، وعض بقسوة على شفته ، ثم نهض فجأة ، وانطلق يركض في حارة السعدي .

ولما ابصرت فطمة اخاها منقضا عليها شاهرا سكينه ، ولولت ، وسارعت الى الهرب من البيت ، وركضت في ازقة حارة السعدي حاسرة الرأس ، مبعثرة الشعر ، وصرخت مستغيثة . غير ان السكين لحقت بها وبلغت عنقها بينما كان الرجال والنساء والاطفال يقفون متجمدين شاحبي الوجوه .

وهكذا مات الشعر الاسود ، ولكن فطمة ما تزال تركض في حارة السعدي ، وتطرق ابواب بيوتها مستنجدة فلا يفتح باب من الابواب ، وتتلطخ السكين بالدم .

دمشق — زكريا تامر